ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617
Vol.5 No.2 2022

تأملات أدبية في رحلة الحج:"في منزل الوحي" لمحمد حسين هيكل

LITERARY REFLECTIONS ON THE HAJJ JOURNEY: " FI MANZIL ALWAHI " BY MUHAMMAD HUSSEIN HAYKEL

***الدكتور حافظ محمد ألطاف**
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية بجامعة بنجاب، لاهور، باكستان.
****الدكتور حافظ عبد الجبار**
الأستاذ المساعد بالكلية الحكومية الإسلامية، جوجرانواله

ABSRACT
The journey to Hajj began its journey since our father Ibrahim Al-Khalil – Peace be upon him - authorized the Hajj for people. Hajj in Islam is a fifth pillar. The journey to Hajj is a blessed journey in which the pilgrim bids farewell to his family and his land in order to establish direct contact with the sacred feelings and carries through his journey many memories in which he recalls the events of the Prophet's biography, the history of Islam and the sacrifices of the family of our father Ibrahim - peace be upon them - until he completes his duty, completes his asceticism, and returns to his home. Many of them used to record what they witnessed of events, facts, and what went on in their minds of feelings and thoughts. Among these writers is the great writer and author, the famous traveler Dr. Muhammad Hussein Haikal, who was honored with this blessed journey in 1936 AD, and left us memories of that journey in a wonderful book called "Fi Manzil Alwahi." In this research, we make an exploratory tour of the pages of this journey through The two axes: The first: introducing the literary writer.
The second: literary reflections on the journey of revelation.
***Key Words**: Fi Manzil Alwahi. Muhammad Hussein Haikal.Hajj Journey*

بدأت الرحلة إلى الحج مشوارها منذ أن أذّن أبونا إبراهيم الخليل- عليه أفضل الصلاة، وأزكى التسليم- في الناس بالحجّ، امتثالاً لأمر ربه الجليل بقوله تعال : ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .... من كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾[1] وستستمر إلى أن تقوم الساعة بإذن الله تعالى.

والحجّ في الإسلام ركن خامس من أركانه، وشعيرة جليلة من شعائره، وهي بنفسها رحلة إذ لا تتم إلا بالارتحال، ومن شروطه الزاد والراحلة، وتتجلّى فيه آيات بيّنات من عظمة الله وتوحيده في أجمل حُلَلِها، وتظهر فيه معاني الأخوّة والتضحية، والتفاني، والسموّ في أبهى صورها، ولقد كان ممن شرّفه الله بهذه الرحلة المباركة كثير من أهل العلم، والفكر، والأدب الذين كانوا يتوقون إلى بيت الله الحرام، فيسعون طوال عمرهم لينالوا هذه المكرمة النبيلة فيحجّوا بيت الله الحرام ويشاهدوا آيات عظمة الله، وومضات نور النبوة الذي انبثق من هذه البقعة الطيبة وأضاء الدنيا كلها بأشعّته، فتحقّقت لهؤلاء أمنيتهم.

والرحلة إلى الحج رحلة مباركة يودّع فيها الحاج أهله، وأرضه ليقيم اتصالاً مباشراً بالمشاعر المقدّسة ويحمل من خلال رحلته ذكريات كثيرةً يسترجع بها أحداث السيرة النبوية، وتاريخ الإسلام وتضحيات أسرة أبينا إبراهيم -عليه السلام- حتى يكمل فريضته، ويقضي نسكه، ويعود إلى بيته سالماً ومغفوراً له بفضل الله ورحمته.

وهذه الرحلة مليئة بالخيرات، والمنافع الدينية والدنيوية، كما قال الله تعالى: ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ** ﴾(2) ومن منافع هذه الرحلة الطيبة: أنها مجال خصب، وميدان فسيح من ميادين التدوين والتصنيف عند أهل العلم والأدب فدأب كثير منهم على تسجيل ما شاهدوه من الأحداث، والوقائع وما دار في أخلادهم من المشاعر والخواطر، وما عايشوه من الصعوبات، والمخاطر بصياغة أدبية رفيعة مراعاةً الدقّة، والنزاهة، والأمانة العلمية فأصبح لدى الأمة سفرًا تاريخياً متكاملاً، وسجّلًا ثقافيًا، وأدبيًّا خالدًا لأوضاع الأمة الإسلامية التي كانت تصل وفودها إلى الحج كل عام.

ومن هؤلاء الكتّاب والأدبا ء الكاتب الكبير والأديب الأريب، والرّحالة الشهير الدكتور محمد حسين هيكل الذي تشرف بهذه الرحلة المباركة عام 1936م، وترك لنا ذكريات تلك الرحلة في كتاب عجيب سمّاه"في منزل الوحي" ونقوم في هذا البحث بجولة استكشافية في صفحات هذه الرحلة من خلال المحورين:

أولهما: التعريف بالكاتب الأديب.

وثانيهما: تأملات أدبية في رحلة منزل الوحي.

التعريف بالكاتب الأديب:

اسمه وأسرته:

ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617
Vol.5 No.2 2022

هو محمد بن حسين بن سالم هيكل، وكانَ لوالده وجاهة في قريته، فهو رئيسُه االنافذُ الأمر ومنزلهُ منزلُ الضِيفان والوفود [3] وقد كان أبوه يمثّل نشأة الطبقة الوسطى في مصر التي جعلت تسود الريف المصري.

مولده:

ولد محمد حسين هيكل في سنة 1888م في العشرين من شهر أغسطس في قرية مصرية ريفية وهي "كفر غنام" من أعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية لأسرة ريفية مصرية صميمة.[4]

نشأته، ودراسته، ونبوغه في الأدب:

وكانت تطلّعات أبيه أن ينشئ أبناءه تنشئةً علميةً كريمةً، فاهتمّ بتعليم ابنه هذا، ورعايته، ولما بلغ العام الخامس من عمره أدخله والده بكُتَّاب في القرية في ذاك الوقت، فتعلم هناك فن القراءة والكتابة، وأتقن حفظ ثلث القرآن العزيز، ثمّ انتقل حين كان في العام السابع من سنه إلى مدينة القاهرة، والتحق بالمدرسة وأكمل الدراسة الابتدائية، ثم أتمّ الدراسة الثانوية، وبعده التحق كطالب مننتظم في كلية الحقوق، حيث تخرج منها عام 1909م، ولكن رغبته مالت إلى الأداب مذ أن كان طالبًا في مدرسة الحقوق، فلزم بقراءة التراث العربي القديم. واتصل برجل أدبي لطفي السيد الذي كان محرر لجريدة، وكان شخصيته الذي فتح له صحيفته ليكتب فيها، واعتنى به حق عناية، وكان لهذه العناية أثرها العميق والراسخ في نفسه، لأنه قد لقي بمربي الشباب دون واسطة ، وأصبح من متعلقيه فتلقّى عنه نظرياته ومحاضراته في السياسة، والأخلاق والاجتماع. فأدرك ما يدعو إليه الأستاذ لطفي من الإيمان بالمصرية والعمل على إبرازها في حياتنا السياسية، والأدبية، واللغوية.[5]

وبعد التخرج في الحقوق رآى من الضروري أن يزيد في معرفته وفرنسا كانت ملائمة لذلك، فارتحل إلى مدينة باريس، والتحق بكلية الحقوق فيها، وحصل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي عام 1912م.[6]

الحياة المهنية والصحفية:

وعادَ الدكتور لا ليلتحق بوظيفةٍ حكومية، كما هو شانُ الكثيرين من زملائه، بل آثر أن يكونَ حرّاً طليقاً، فاتّجه إلى المحاماة، وفتح مكتبَهُ بالمنصورة لقُرْبها مِن قَرْيته، فراجَ له صيتٌ قانوني، وأدّى رسالةً كأحسن مايكون الأداء.ثم رأت الجامعة المصرية القديمة أن تستعينَ بالدكتور هيكل أستاذاً للقانون الدستوري بها، لأنّه مؤهّل لذلك بما أحرزَه من درجةعلمية تجِد الاعترافَ بهافي العالم جميعه، فكان يترك عمله المهني بالمنصورة يومي الأربعاء والخميس، ويأتي إلى القاهرة ليُلقي الدروسَ التي أُنيطت به.[7] أمّا الصحافة فقد اتّجه إليها هيكل في وقت مبكر بفضل لطفي السيد محرر الجريدة، وأكثر من الكتابة فيها، وارتأس تحرير الجريدة السياسة اليومية (1922).[8]

الانتماء السياسي، والمناصب:

وكان ركنًا من أركان الحزب الدستوري لسعد زغلول الذي شغل دوره كرئيس وزراء في مصر، وحزبه. وولي وزارة المعارف مرتين (1937م 1940م) ثم رئاسة مجلس الشيوخ (50 - 1945)[9]

رحلاته:

قام محمد حسين هيكل برحلات عديدة، وأسفار كثيرة في حياته إلى أوربا، وبلاد الشرق، وبلاد الحرمين لأسباب عديدة، وكتب أحوال رحلاته بقلم الأديب البارع، وترك رحلات رفيعةً مثل " في منزل الوحي" وصف فيه رحلته إلى الحج، قام بها عام 1936م، وكتاب" شرق وغرب"، وألف كتابه المسمى بـ "ولدي"، وهو في الحقيقة كتاب تذكاري لابنه الذي توفي سنة 1925..[10]

يمتاز أدب الرحلات للدكتور محمد حسين هيكل عن غيره من الذين اهتمّوا بذات النوع من الأدب، لأنه أدب لا يحتوي على مجرد رصد بارد للأماكن، أو وصف أجوف للطبيعة، إذ يركّز اهتمامه البالغ على الموقع السياسي،والثقافي والاجتماعي للأمم. فهذا النموذج الفريد من الكتابة يقدم للقارئ صورةً كاملةً.

وفاته:

لقيَ محمد حسين هيكل ربّه في صباح السبت من ديسمبر سنة 1956م، بعد ثمانية وستين عاما قضاها كاتباً وسياسياً، وزعيماً، فاكتسبَ مكانته الخالدة بين المفكرين.[11]

آثاره العلمية:

ومن أهم الآثار العلمية التى خلفها الدكتور ما يلي.

حياة محمد، وفي منزل الوحي، وثورة الأدب، والصِّدّيق أبو بكر، والفاروق عمر (جزآن)، و ولدي، وعشرة أيام في السودان، و تراجم شرقية وغربية، وفي أوقات الفراغ، وشرق وغرب، و جان جاك روسو، وثلاث قصص هي: زينب، وأبيس، وهكذا خلقت، والإمبراطورية الإسلامية (نشر بعد وفاته).[12]

تأمّلات أدبية في منزل الوحي:

هذا الكتاب العظيم عبارة عن توثيق الكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل لرحلته للحج قام بها عام 1936م وقد أبدع الكاتب، وأجاد في تدوين رحلته المتضمنّة على معارف تاريخية، وأدبية وإيمانية، وحضارية، وحقائق السيرة النبوية - على صاحبها أزكى التحيات- في أسلوب مؤثّر خلاّب وتحمل هذه الرحلة في أطوائها معاني سامقةً، وروحانيات ساميةً تسمو بالنفس إلى مراقي السعود من الإيمان بالله، ومحبة الرسول، فهي خواطر مليئة بعظمة الحضارة الإسلامية، والأخوة الإيمانية، والإيمان بخلود رسالة الإسلام، ومقدّمة بصورة شفّافة لآثار هذه الأمة الإسلامية يرى فيها الكاتب عظمة الثقافة العربية، فأراد أن ينقل هذه الخواطر والحقائق إلى كل مسلم، وكتب هيكل هذا الكتاب بكل مشاعره، وأحاسيسه حتى

سيطرت على نفسه تلك المشاهد بقوّتها التأثيرية، يقول الدكتور محمد رجب البيومي:

"أما "في منزل الوحي" فكتابٌ ذاتي أكثر منه موضوعياً، لأنّ فكرته الأولى هي وصفُ الرحلة الحبيبة إلى ديار رسول الله -ﷺ- فخواطرُ الزائر المشوق ترفرفُ على قلمه، فتتيحُ له من الأشواق والمواجدِ ما لا تُتيحُه مصادِرُ التاريخ، فإذا ألمّ بالحدثِ التاريخي حين يزور موقعه المكاني فهو إلمامٌ تزدحم فيه المشاعر المؤمنة، وتنطلِقُ الأشواق الحبيسة إلى أبعدمَرمًى تصل إليه."([13])، وكذلك عبّر عن رأيه في تأثير هذا الكتاب بقوله:" أقرر في صدق أنّني لم أجد كتاباً ملك علي مشاعري، واستحوذ على تفكيري في أثناء مطالعته ككتاب ... وقد مضى على تأليفه خمسة وستّون عاماً، ولا يزال بريقه الخالب يجلب إليه المثقفين من القراء في حبّ، واندفاع حتى إنّهم يصحبونه معهم في رحلة الحج المباركة."([14])

عرض موجز للكتاب:

وجاءَ كتابُه القيم في ستة فصول بين المقدمة، والخاتمة، أمّا المقدمة فتحدث فيها عن أهمية بلاد النبي - ﷺ- لاختيار القدر إياها للوحي، والرسالة، وأشار فيها لدوافعه لهذه الرحلة، وتدوينها، وكذلك تطرّق إلى الردّ على الكتّاب الذين غمزوا الكاتب بأنّه انقلب رجعيّاً بعد تأليف كتاب " حياة محمد – ﷺ – ثم بيّن أسباب تخلّف العرب، وردّ على النزعة القومية، ودعا إلى الأخوة الإسلامية، واقترح على المفكرين، والساسة أن يتخذوا من مكة المكرمة مقرّاً لعصبة أمم إسلامية.

وتحدث في الباب الأول عنْ عزم السفر إلى مكة، وبيّن تلك المخاوف التي حال دونها "([15]) ثم تحدث عن الميناء الذي انتهتْ إليه الباخرة، وعن العمرة بمكة، ووقفة عرفات، وعنْ أيام التشريق، كما يتحدث في الباب الثاني عن البلد الحرام، وعن عبد العزيز آل السعود، عاهل الحرمين، وعن الجمعة في الحرم، وعن مشهد الكعبة يوم الحج الأكبر، وعن آثار مكة المتمثّلة في غارِ جراء، وغارِ ثور وغيرهما.

أما الباب الثالث فخاص بالطائف، وآثارها، وقد تحدّث الكاتبُ عنْ أسواق العرب تفصيلاً وشمولاً بما لم يتحدثْ به أحدٌ من قبله،([16]) وفي الباب الرابع تحدث عما بين الحرمين المكي، والمدني من مشاهد، وهو حديث موجزَ بطبيعة موضوعه.

أمّا الباب الخامس فخاص بمدينة الرسول- ﷺ-وهو أقوى أبواب الكتاب تحليلاً، واستيعاباً ووصفاً إذ أفاضَ في حديثه عن المسجد النبوي، والمدينة الحديثة، وآثار المدينة القديمة، وجنّةِ البقيع، وقبرحمزة سيد الشهداء - رحمه الله -كما كانت وقفتُه الشاعرة أمام الحجرة النبوية الشريفة من أنفسِ ما قال الكُتاب في هذا الصدد، متنقلاً إلى الكلام عن ظاهر المدينة، وزيارة الوداع.

وجاء الباب السادس، والأخير ليتحدّث عن بدر، وشهدائها، وعن أوبة الرضا، منتهياً إلى الخاتمة وهي ذاتُ شأن في إيضاح مستقبل الإسلام، وما يقوم في وجهه من العواثير، ومن الواجب أن تكونَ موضع دراسة مستوفاة لدى من يهتمون بهذه الشؤون، وهذا العرضُ السريع لأبواب الكتاب يدل دِلالةً على محتواه، ويدل دلالة العُنوان فحسب، لأنّ ما تحت العنوان من الخواطر المؤُمنة لُجّ زاخر موّاج، يهز النفس بجيشانه، وتدفّقه، واصطفاقه.[17]

دوافع الرحلة:

تحدث الكاتب في المقدمة عن دوافع رحلته إلى الحجاز غير الحج، والحقّ أنّ الكاتب قد شعر في أطواء نفسِه بعد كتابة "حياة محمد ﷺ" أنَ شيئاً كثيراً من سيرة النبي - ﷺ – بقي جمعه، وأن هذا الشيءلا يتمّ تسطيره إلا بعد زيارة مهبط الوحي الشريف كما قال:"شعرتُ آخر الأمر أنّني ما وقفت حيثُ وقفَ فيما مرّ به من أدْوار حياته، ولم اطلع لذلك في حُدود الطاقة على البيئة العامة التي نشأ فيها، وإنما كنتُ أفكر في هذا لأكمل به بحوثي في السيرة، فأما أن أقدمه في موضوع كتاب مستقل فذلك ما كنت أدري بخلَدي في باديَ الرأي، فلما ذهبتُ إلى الحجاز، وطفت فيه، تبيّن لي أن ما قمت به من بحوث يتعدى السيرة إلى عُصور إسلامية كثيرة، ويمتد إلى عصرنا الحاضر، فمن المناسب أن أطلع القراء بكتاب مُستقل يحتوي على ما رأيتُ، ويتناولُ ما شعرتُ به حين كَرَرتُ إلى الزمن راجعاً إلى عهد الرسول - ﷺ- وما كان بعد ذلك من ثقافة المسلمين وحياتهم في عهدهم الأول، ثم ما جرى في البلاد الإسلامية المقدسة بعد ذلك إلى وقتنا الحالي "[18] وإذنْ فالتعريف بالجزيرة العربية في القديم والحديث من أهداف الرحلة التي خطها الكاتب وَوفّقَ هذا الهدف، ولعل من توفيق الله للكاتب انَّ رحلة الحج قد جاءتْ عقب تأليف كتابه حياة محمد لأنّها لو جاءتْ قبله ما كانت تسمح لخواطره المثقفة الدارسة أن تجيشَ هذا الجيشان، لأنّ ما علمه قبلُ من أحداث السيرة كان نوراً يهديه، وهذا بعض ما عبَر عنه حين قال في تقديم الكتاب:

وكان حديثُ الآثار الصحيحة المستندة التي وقفتُ عليها، كلها تحمل البلاغة في التعبير عما تدل عليه من آي الجلال والعظمة، فجبلُ حراء، وقمته، ومسجدُ عُداس بالطائف ومسجد العقبة، وجمرتها، وجبلُ ثور و مُخبتأ رسول الله -ﷺ-وأبي بكر رضي الله عنه بالغار فيه، والطريقُ الذي سلكه الرسول- ﷺ - إلى المدينة وقت هجرته من مكة، ومساجدُ قباء، و النبوي، والآثار الكثيرة المختلفة بالمدينة، وصعيد بدر، حيث حدثتْ الغزوة الأولى بين كفار قريش، والمسلمين، فهذه المواقعُ بما فيها كانت تُثير في ذهني ذكرياتٍ مليئةً بالحياة، كأنّها حدثتْ أمس، وكانت تُوحي إليَّ معاني الإجلال، والإعظام، وتزيدني شرفًا لهذه الأماكن، في هدوءها الصامت، الذي لم يتغير منذ توالي القرون."[19]

طبيعة الكتاب، ومنهجه:

ويقول الدكتور هيكل عن طبيعة كتابه هذا، ومنهجه في تسجيله:

ليس الكتاب بمرجع للتاريخ الإسلامي، بل إنما هو تسجيل بعض الوقفات التي وقفتها في مناطق الوحي، ومنزله، أستقي فيها مواقف سيدنا وشفيعنا محمد بن عبد الله، الذي أرسل نبي الله ورسوله. وتجردت نفسي في هذه المواقف ملتمسًا في

ذلك الأسوة والعبرة، وكذلك ما خضعتُ تفكيري لحكم الغير، وكيف كان لي ذاك، وقد كنت أشعر في كثير من هذه المواقف أنني موجود بين القوم أسمع كلامهم وأراهم، وكثيرًا ما تمنيت أن لو كنت معهم فأجاهد معهم وأفوز فوزاً عظيماً.

وقال أيضاً: "مع وقوفي موقف الناقد من بعض الشؤون الراهنة في البلاد المقدسة، لقد اعتنيت أكبر عنايةً بآثار الرسول – ﷺ – فيها، وجعلت معظم همي أن أذهب إلى حيث ذهب ﷺ؛ فألتمس ما في حياته وسيره وذهابه من أسوة وعبرة، وأرجو أن أعرف السرّ الذي جعل البلاد منزل الوحي .([20])

الوصف عند هيكل:

وهيكل حين يتناول شيئاً فإنه يحرص على وصفه في دقّة وتفصيل، وإذا كان لا بد من أن نشبه عمله هذا بفن فرأيناه إلى النحت أقرب منه إلى التصوير، إذ إنه يجسّم الموضوع والخيال، وذلك بسبب رسومه الوصفية البارزة، وألوانه المتينة، وإحاطته بأطراف الشيء الذي أخذه بالوصف، والوصف لا يقف عنده عند شيء بل يتعدّى إلى كل ما رأته عينه من شارع، أو عمارة، أو شخص، أو منظر طبيعي، أو وضع سياسي، أو حضاري.. ويبدو ذلك في كتاباته عن أسفاره إذ نجد أذنيه وعينيه، وعقله، وقلبه كلها مفتوحة على كل ما يقع عليه الحس، والإدراك بحيث لم يفته شيء من دون أن يلتقطه، فيتذوّقه، ويقيده في السجلّ بقلمه الجاري والسيال، وأسلوبه المتين، ولقد كانت تنتاب الدكتور هيكل حالة أقرب بحالة الوجد الصوفي تسري بقوتها من يقرأ كتاباته.([21])، فوصف في رحلته كل شخص هام لقيه، وكل بناء رآه، وكل منظر أخذ بلبّه.

وصف جوف الكعبة:

يقول في وصف داخل الكعبة:

"الكعبة بهوٌ رفيع خال من كل زينة، وزخرف، وسقفها يعتمد اليوم على ثلاثة عمد من الخشب الضارب لونه إلى حمرة تشوبها صفرة، ويرجع العهد بهذه العمد إلى أجيال طويلة خلت، فعبدالله بن الزبير هو الذي وضعها حين جدد بناء الكعبة، ولم يصب هذه العمد فساد على طول العهد بها إلا ما كان مند خمسين سنة أو نحوها حين تآكل أسفلها فشدّت بدوائر من خشب طوّقت بها، وسمرت عليها وتعلو هذه الدوائر عن أرض الكعبة ما يزيد قليلاً على ثلاث أذرع، وأرضها مفروشة برخام أبيض عادي، قصد منه إلى المتانة، ولم يقصد إلى الزخرف. "([22])

وهكذا يسترسل في وصفها بدقة مع الإشارة إلى كل ذي فضل في فضله.

روائع المشاعر الروحية:

فاضتْ مشاعر الكاتب في هذه الرحلة بأرقى ما يتصور من أساليب البيان حين يغمره الخشوع القانت في مهابط الجلال، والسمو، وحين يرى مشهداً من مشاهد المناسك من الإحرام، والطواف والسعي بين الصفاء والمروة والوقوف بعرفة وغيرها، أو أثراً من الآثار المقدسة، فإنّها تستفزّ عواطفه الكامنة، ويكادُ أن يكون شاعراً ينطقُ بأعذب الألحان، وهل الشعرُ في مراقيه العالية إلا استجاشةً لفيوض العزة، والكرامة من تاريخ نبي رفع الإنسانية من أسفل الوهاد إلى أعلى الذروات؟ والرحلة حافلة بهذه الروائع، وهي منثورة في كل صفحة من صفحاتها عند كل موقف يشدّ انتباهه.

شعوره عند أول نظرة إلى الكعبة:

ومن هذه الصور الروحية مما كتبه عند رؤية الكعبة:

"وما لبثت حين تخطيت الباب، والمكان المسقوف من المسجد بعده حتى تبدّت لي الكعبة قائمةً وسط المسجد وقد انسدل على جدرانها لباسها الأسود المطرّز بوشي الذهب، تبدّت لي دون أن يلفتني أحد إليها، وتبدّت وكأنّي عرفتها، وطفت بها قبل ذلك مرّات، وما لي لا أعرفها، وقد رأيت كسوتها يطاف بها في القاهرة منذ طفولتي..."([23])

مشاعره حيال "غار حراء":

ومن الصور الهادئة التي تصوّرُ مشاعر الكاتب الكبير حيالَ "غار حراء"ما سطّره برحيق مشاعره قوله:

"ها هو ذا محمد – ﷺ -يسيرُ وحيداً منفرداً، حاملاً من الزاد ما لا ينوء رجل بحمله، يخترقُ طرق مكة من جنوبها إلى شَمالها...." ([24])

تلك خطراتُ كاتبِ مُؤمن، شاء أن يتخيل عواطف الرسول الشريفة، ولكن مع ذلك، أن عواطف أعظم خَلْقِ الله جميعاً من بني الإنسان لا يقدرُ على تصوّرها على حقيقتها الرفيعة إلا نبي مثله فمهما ارتقى كاتب في تصوره فلن يبلغَ معشار ما بلغه صاحب الرسالة العظمى في رفعة خواطره، وارتقاء مُثله، ولكنْ حسبُ الكاتبِ أنّ إيمانه قد دفعَ به إلى استجلاءِ صورةٍ كبيرة من منفذه الضيّق، فصور منها ما استطاع أن يراه، وبقي مما لم يستطع تصويره الكثير. والكثير.

نعم، هنا اعترف هيكل بأنَّ منطقَ محمدٍ ليسَ كمنطقنا، وروحه ليست كروحنا، فمهما دقّقْنا في تصوير نوازعه الشريفة، فهي دون ما ارتقتْ إليه هذه النوازع من كمال، ولكنْ للمؤمن شوقه وهيامه برسول ربه وهذان: الشوقُ والهيامُ، يدفعانه إلى التصوّر المرُتقي إلى اعلى ما يُستطاع، وهو الحبّ يأبى إلا أن يفيض.([25])

أمام الحجرة النبوية:

دخل الكاتب حجرة النبي – على صاحبها الصلوات والتسليمات – تالياً تحية الصلاة والسلام على حضرة رسول الله، والفاتحة على صاحبيه، ثم قال:"ثم أقمت مكاني شاخصاً إلى الحجرة... وكأنّي في ساحة ملك أودّي واجبات الإكبار، والتعظيم... "([26])

فامتلأت روحه إجلالًا وتعظيمًا وتقديساً، وشعر شعورًا لم يشعر به حتى الآن، ولكنه ما بكى، ولم تذرف عيناه كغيره من الزوار، ولعل ذلك بإخلاصه لله الدين، وفهمه الصحيح له، ورجاؤه من الزيارة أن يكون سبباً في مزيد من التأسّي بأسوة الرسول – ﷺ فقال معلّلاً لحالته:

"هذا إلى أنّني خلقت عصيّ الدمع، لا تُسعفني العبرات ما تُسعف غيري، فإن أوشكت ضننت بها ضنّاً بكرامتي وإبائي، وما أدري لعلّي كذلك خشيت أن يكون في البكاء مظهر عبادة، وقد قال عليه السلام-: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد)) وإنما تفيض دموع المؤمن من خشية الله." [27]

التأملات الفلسفية:

ويجنح الكاتب في رحلته إلى التأمّلات الفلسفية كلّما سنحت له الفرصة، ومن ذلك تصوره، وهو في الحجاز الوجودَ متصلاً في وحدة روحية هي نفسها دليل على وحدانية الله وتحليله للأخوة التي تربط بالمسلمين جميعاً على اختلاف جنسياتهم، وقومياتهم، وتحليله لشعوره بالألفة تجاه المسجد الحرام رغم أنه لم يكن رآه من قبل، وتعليله عزة الأمم بما يقوم به أبناؤها من تضحيات، وحملته على الفكرة القومية التي أصبح يراها ضعيفةً ذات بريق خادع، وتأكيده أن العلم الحديث قاصر عن إسعاد الإنسان، وأنه لا بد من الاستعانة بالدين.[28]

استرجاع الذكريات (الفلاش باك):

ومن سمات هذه الرحلة أن كثيراً ما يرتدّ الكاتب، وهو يصف ما حوله، إلى الماضي السحيق من أيام الرسول - صلى لله عليه وسلم- ويمتح (يستخرج) من بحر السيرة والتاريخ ما له علاقة بهذا الذي بين يديه مثلما يقول:وذكرت وأنا أفكر في هذا وفي مثله الصحابة المسلمين الذين كانوا يحضرون للصلاة في الكعبة -كما نحضر نحن للصلاة عندها اليوم – فيمنعهم المشركون ويصدّونهم من الصلوة فيها، ويؤذونهم، ويعذّبونهم عذابًا بليغًا ...وكما يتذكّر حجة الوداع، وما وقع لهاجر، وابنها في بادية الحجاز في قديم الزمان، وخلاف قريش عند تجديد الكعبة حول من ينال شرف نقل الحجر الأسود من موضعه، وعمرة القضاء، واختباء النبي والصديق في غار ثور.[29]

ويصف ما يشعر به، وما يدور في خلده من الصور الذهنية، ثم يقطع الحديث عن بيانها، ويخرج عن هذه الحالة الداخلية إلى الحقيقة الخارجية، فيسرد أحداث السيرة، وخير دليل على ذلك وصف شعوره الداخلي، والتعبير عن أخيلته الرفيعة عند زيارته لغار ثور[30]

الأمن في العهد السعودي

وأعظمُ ما يُبهر من صفحات التاريخ المعاصر في هذا الكتاب ماتحدث به الدكتور هيكل عن الأمن، والأمان في العهد السعودي بالجزيرة العربية، إذ وصف ما كانت عليه قبل ذلك من اضطراب وعُدوان، حيث أصبح الحاجُّ القادمُ من بلاد الإسلام خائفًا على نفسه من شراذم قطاع الطريق، الذين يُهاجمون القوافل، وينهبون المال ويسفكون الدماء بغياً دون حق، وذلك تاريخٌ سُجّل في الصحائف وهتف الشعراء بمآسيه حقبةً من الدهر، ولكن يد الله هيّأت عبد العزيز بن سعود ليردّ على البلد أمنه وعلى الإسلام كرامته، إذ ينوش الآثمون وفودَ الحرمين الشريفين بأفتك الأسلحة، وكأنّهم أعداء مهاجمون لا ضيوف قادمون![31] والفضل الذي تحدّث فيه الكاتب الكبير عن (ابن السعود بمكة) يغني عن صحائف كثيرة كُتبت في هذا المجال، كما يُفصح عن أدق الأسرار السياسية بين مصر، والحجاز في حقبة أليمة تأصّلتْ فيها دواعي الشقاق، وسعى المغرضون بالتفرقة، فزادوا النار التهاباً، ولكن حكمة الملك عبد العزيز قد استطاعت أن تخمد الحريق، بما وُهبَ من بصيرة نافذة، وإيمان مكين.

أسلوب الكاتب:

ويتميز أسلوبه بالصراحة والوضوح، مع عنصر من الجلال، والاحتفاء بالصياغة وإن كان أسلوبًا عصريًا في وضوحه وتجنبه عن المحسنات والزخارف، وكثرت فيه التعبيرات القرآنية، يقول عن الحجاج: " ليُشهدوا على أنفسهم... يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا، ويحسنون كما أحسن الله إليهم ولا يبغون الفساد في الأرض، لهذا جاؤوا من كل فجّ عميق".[32]

أمور أخرى:

وهناك أمور كثيرة تطرق إليها الكاتب منها ظاهرة التسول في مكة، والنقد على المستشرقين وحالة المسلمين اليوم وأسباب تخلفهم، وإقبال شباب الحجاز على العلوم الجديدة، والحضارة المعاصرة والدعوة إلى إقامة الأخوة الإسلامية، وأدوار الملوك في خدمة الحرمين الشريفين، ومظاهر الحضارة والثقافة في الحجاز. والكتاب كما قال الدكتور البيومي:

"الحق أن كتاب "في منزل الوحي" مرجع لسيرة النبي من ناحية، -ومرجع لمعرفة أحوال العالم الإسلامي... من ناحية ثانية، وقارئُه يستريحُ استراحةً تامةً لما يُبديه الكاتب من آراء."([33])

فأقترح الباحثين الكرام أن يأخذو الموضوع بما فيه من أسلوب متين ولغة سلمية مع ميزات أخري للكتاب، ويقدموا هذه الأعمال إلى عالم المعارف.وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحواشي والهوامش:

---

1 :الحج: 27
2 :الحج: 28
3 :البيومي، محمد رجب: محمد حسين هيكل الأديب السياسي المؤرخ ورائد الكتابة. الطبعة الأولى. دمشق: دار القلم. 2001م. ص: 13
4 :شوقي ضيف (الدكتور): الأدب العربي المعاصر في مصر. الطبعة الثالثة عشرة، . القاهرة: دار المعارف. ص: 270

5: شوقي ضيف (الدكتور): الأدب العربي المعاصر في مصر. 270
6: المرجع نفسه. ص: 270
7 :البيومي، محمد رجب: محمد حسين هيكل الأديب السياسي، المؤرخ، ورائد الكتابة. ص: 19
8 :الزركلي، خير الدين: الأعلام. ج 6، ص: 107
9 :الزركلي، خير الدين: الأعلام. ص: 107
10:شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر. ص: 272
11 :البيومي، محمد رجب: محمد حسين هيكل الأديب السياسي، المؤرخ، ورائد الكتابة، ص: 23
12:الزركلي، خير الدين: الأعلام. ج 6، ص: 107
13: البيومي، محمد رجب: محمد حسين هيكل الأديب السياسي المؤرخ ورائد الكتابة. الطبعة الأولى. دمشق: دار القلم. 2001م. ص: 96
14: البيومي، محمد رجب: قراءة في كتاب في منزل الوحي، الأزهر: ج 11(ديسمبر 2005م) ص: 27
15: المرجع نفسه. ص: 34
16 :لأنّ كتاب الأستاذ محمد سعيد الأفغاني "أسواق العرب" لم يكُنْ قد ظهر بعدُ، حيثُ استكمل كلما يمكن أن يقال عن هذه الأسواق إلّا أنه قد سبقه إلى ذلك الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه "ما سمعتُ وما رأيت" ط. 4 92 1، والأمير شكيب ارسلان في رحلته الحجازية " الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف" ط. 9 92 1 (ناشر الكتاب)
17: البيومي، محمد رجب: محمد حسين هيكل الأديب السياسي المؤرخ ورائد الكتابة. الطبعة الأولى. دمشق: دار القلم. 2001م ص: 99
18 :هيكل، محمد حسين (الدكتور): في منزل الوحي. ص: 10
19 :المرجع نفسه. ص: 14
20 :هيكل، محمد حسين (الدكتور): في منزل الوحي. ص: 17، 18، 11
21 :إبراهيم عوض(الدكتور): محمد حسين هيكل (أديباً وناقداً ومفكراً إسلامياً). القاهرة: مكتبة زهراء الشرق. 1998م. ص: 13-128
22: المرجع نفسه. ص: 159
23: هيكل، محمد حسين (الدكتور): في منزل الوحي. ص: 62
24: المرجع نفسه. ص: 192، 193
25 :البيومي، محمد رجب: محمد حسين هيكل الأديب السياسي المؤرخ ورائد الكتابة. ص: 106
29:هيكل، محمد حسين (الدكتور): في منزل الوحي. ص: 463
27 :هيكل، محمد حسين (الدكتور): في منزل الوحي. ص: 464
28 :المرجع نفسه. ص: 50، 76، 83، 573
29: المرجع نفسه. ص: 148، 47، 78، 79، 112، 217، 222
30 :هيكل، محمد حسين (الدكتور): في منزل الوحي. ص: 214
31 :المرجع نفسه. ص: 127، 130
32:هيكل، محمد حسين (الدكتور): في منزل الوحي. ص: 60
33: البيومي، محمد رجب: محمد حسين هيكل الأديب السياسي المؤرخ ورائد الكتابة. ص: 101